عبد الغني عماد

# سوسيولوجيا الهوية: جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٧). ٣٠٤ ص.

**سالم كبارة**(*)

باحث أكاديمي وأستاذ في سوسيولوجيا الإعلام ـ كندا.

## ـ ١ ـ

يستكمل عبد الغني عماد مشروعه البحثي الذي بدأه قبل سنوات في كتاب **سوسيولوجيا الثقافة من الحداثة إلى العولمة**، ثم في كتابه **الهوية والمعرفة، والمجتمع والدين**، لتكتمل الثلاثية مع هذا الكتاب **سوسيولوجيا الهوية: جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء**. والواقع أن من يتابع هذا المشروع البحثي منذ بدايته يجد نفسه أمام عمل ضخم وورشة علمية وأكاديمية متعددة الأبعاد؛ فهي لا تكتفي بتناول الأبعاد النظرية الخاصة بالموضوعات التي تعالجها سوسيولوجياً من حيث العرض والتحليل وفق المدارس والاتجاهات المتنوعة، بل تعمد إلى النقد والتفكيك المعرفي لها ومن ثم تلجأ إلى التوظيف التحليلي لما يمكن أن يشكل منها مفاتيح تفسيرية لواقع مجتمعاتنا العربية، وهو ما شهدناه بصورة واضحة منهجياً في العديد من الكتابات والمشاريع الفكرية العربية التي استقطبت كثيراً من النقاش، وكانت بدايتها مع الجابري والعروي وأركون وقبلهم أنور عبد الملك. ما يميز المداخل التي يدشنها عبد الغني عماد اتصالها المباشر بالسوسيولوجيا النظرية من جهة والسوسيولوجيا التطبيقية من جهة أخرى، وبخاصة لاعتمادها إشكالية الهوية والثقافة وما تطرحه على مجتمعاتنا من تحديات نشهد آثارها حولنا تشظياً وتفككاً للمشتركات الجامعة مدخلاً أساسياً للتحليل.

من هذه الخلفية قرأت الكتاب فور صدوره؛ فهو يبحث في سؤال الهوية والثقافة الذي شغل السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين والفلاسفة ولا يزال. فالهويات سؤال قديم

(*) البريد الإلكتروني: salem.kab@hotmail.com.

جديد، وهي لا تتشكل من العدم أو الفراغ؛ إنها سيرورة تصير وتنبني، وهي سمات تتحدد ضمن علاقات التماثل والاختلاف وتعكس ارتباط الإنسان بالآخرين وتميزه عنهم في الوقت نفسه. وهي بقدر ما تكون تعريفاً للذات، تكون أيضاً تعريفاً تستدمجه الذات في علاقتها بالآخر.

**ـ ٢ ـ**

أهمية هذا الكتاب أنه يناقش إشكاليات سوسيولوجيا الهوية والمقاربات المختلفة حولها، التي أصبحت اليوم تخصصاً علمياً وأكاديمياً في العديد من الجامعات، تخصصاً له مدارسه واتجاهاته خاصة في عالم اليوم الذي يزداد تعولماً وتفككاً بنفس الوقت، وهو ما يتجلى في أكثر من مكان، وبشكل كارثي في الوطن العربي.

أهمية هذا الكتاب من ناحية أخرى أنه يقول لنا بلغة علمية واضحة: إننا نشهد اليوم تحولاً جذرياً في مفهوم الهوية ناتج من التغيرات التي طرأت على مفهوم «القوة»، فقد أصبحت الثقافة البانية للهويات من الأسلحة الثقيلة في الحروب الناعمة في عالم اليوم، وبخاصة في ميدان إنتاج المعارف والأفكار والرموز والقيم.

أهم ما في هذه الديناميات والتحولات الجديدة لمفهوم الهوية يتمثل بإعادة ترتيب منظومة الولاءات، والأنظمة الرمزية والمرجعية عند التقاء الفاعلين، افتراضياً أو واقعياً، من حاملي الثقافات المتباينة و/أو المتنافسة مما يؤدي إلى بلبلة اليقينيات المستقرة، وتحريكها بطريقة غير مسبوقة، وربما غير متوقعة.

**ـ ٣ ـ**

في الكتاب مطالعات ومساجلات متنوعة في مجال الهوية والأدبيات السوسيولوجية التي عالجت موضوعاتها، ربما لا يتسع هذا العرض لتقديمها، إلا أن ما أود التوقف عنده هو التحليل الذي يقدمه عماد لمسألة الهوية في الفضاء الثقافي العربي التي لم تدخل عليها متغيرات متميزة إلا منذ الثمانينيات، وذلك بتأثير تحولات كبرى داخلية وخارجية. قبلها كانت مسائل التراث والمعاصرة والتنمية والدولة محاور أساسية في التفكير العربي، فقد بقيت المقاربة الهوياتية أحد تفرعات البحث في مسائل التراث والمعاصرة ومتصلة اتصالاً شديداً بالمقاربة الأيديولوجية الرامية إلى إحداث التغير. ما حدث مع انهيار التجارب الأيديولوجية الكبرى في العالم وقيام نظام دولي جديد بمرجعية قطبية غربية من جهة، والانفجار المعلوماتي الهائل في وسائل الاتصال المعولمة من جهة أخرى، تَواكبَ مع مقولات بدأت بتنظير فرانسيس فوكوياما عن **نهاية التاريخ** و**نهاية الأيديولوجيات** وما سينشره صموئيل هنتنغتون بشكل متزامن عن **صراع الحضارات**، أدى إلى ديالكتيك هوياتي جديد على مستوى العالم والمنطقة.

في الواقع هذا المدخل الذي يرسمه المؤلف يذهب تحليلياً إلى طرح مجموعة فرضيات منطلقاً من القول إن مجموعة من المعطيات ساهمت في توليد صياغة جديدة للهوية في المجال العربي تعتمد «الدين» وحدة التحليل المركزية، وهو ما أفضى في ما بعد إلى تفعيل الانتماء الهوياتي المتمذهب والانقسامي، على أنقاض المشتركات الوطنية التي فشلت الدولة العربية بكل نماذجها في ترسيخها وحمايتها حسب تعبيره.

ـ ٤ ـ

يناقش الكتاب في إحدى خلاصاته هذه الفرضية فيطرح حدثين أسهما في تعزيز هذا الاتجاه، تمثل **الأول** بالثورة الخمينية على الشاه؛ و**الثاني** تمثل بالتحولات العميقة التي أصابت بنية الأنظمة الحاكمة في الوطن العربي. فقد مثلت التجربة الخمينية في بداياتها نموذجاً ملهماً لكثير من الإسلاميين لاعتمادها في إسقاط نظام الشاه على التظاهرات المليونية من جهة والدعوة السلمية الدؤوبة من جهة ثانية، لكن ممارستها للسلطة وسياستها الخارجية كشفت عن مشروع طموح يتخطى إيران بحدودها المعترف بها إلى دول الجوار برمتها.

ولأن هذا المشروع من طبيعة مؤدلجة ومتمذهبة، يطرح نفسه في مواجهة الادعاء بـ **نهاية الأيديولوجيات** ومتماهياً مع مقاربة **صدام الحضارات**، فهو يتمتع بقدرة توليدية، ويتغذى على جدلية التوحّد والانقسام، التوحّد مع المتماثلين، والتمايز عن المختلفين، وهي إحدى «استراتيجيات الهوية» التي يتم تفعيلها على وقع التحديات والصراعات وعلى تخوم التنوع والاختلاف، تحوّل مشروع تصدير الثورة وفق النموذج الإيراني إلى طموح لبناء «مجال هوياتي» عابر للحدود والدول والأوطان ومتجاوز للسيادة الوطنية.

ـ ٥ ـ

المجال الهوياتي المتمذهب والمؤدلج الذي يترصده الكتاب من طبيعة مختلفة عن «المجال الحيوي» الذي تحدث عنه الألماني فريدريك راتزل ودرسناه في الكتب العتيقة وطوره هوسهوفر، ذلك أنه يوظف بكثافة عالية المعطيات الثقافية والدينية والأيديولوجية وبخاصة للأقليات. فعلى أساس الجيوبوليتيك القديم، وموازين القوى الدولية مطلع القرن الماضي جرى تقاسم النفوذ بين القوى الكبرى، فقامت دول ورسمت خرائط وتحددت «مجالات حيوية» لكل منها، لكن موازين القوى المعولمة اليوم تبدو في ضوء تلك التطورات أكثر هشاشة من أي مرحلة سابقة.

يستكمل عماد هذه القراءة بتحليل التحولات العميقة التي أصابت بنية الدولة والمجتمعات العربية والمتزامنة التحولات، التي فاقمتها العولمة وأدت إلى المزيد من تعميق أزمة الشرعية في الوطن العربي، وهي أزمة فاقمها فشل مشاريع التنمية والهزائم المتتالية لهذه الأنظمة التي اكتسبت مشروعيتها في الأساس تحت عناوين تحررية وقومية، مقترناً هذا الفشل بتحول الفساد إلى ثقافة متجذرة تحولت إلى ما يشبه النهب المنظم.

ـ ٦ ـ

يتوقف الكتاب عند النظام السلطوي العربي والآليات التي استخدمها للهيمنة على مصادر الثروة في بلاده، وهي آليات انتجت سياسات قادت إلى كوارث اجتماعية وإلى تهميش كل نظيره، إلا أن الكارثة الكبرى تمثلت باعتماده على آلة بطش وقمع راحت تمعن في ممارسة العنف من جهة والتمييز الفاضح بين مكوناتها الأولية، القبلية والطائفية والمذهبية، ويبين، من جهة أخرى، كيف عمدت إلى توظيف هذه الانتماءات في صراعاتها لتثبت هيمنتها، وكيف لجأت إلى سياسات قمعية تستند إلى عصبية أو تحالف عصبيات، وهو

ما أسهم بعودة مسألة الأقليات إلى التداول من جهة، وعمّق أزمة الشرعية لدى هذه الانظمة من جهة أخرى.

لذلك يخلص إلى أن هشاشة الدولة وتبعيتها هي نتيجة طبيعية رغم تضخم آلتها القمعية والأمنية؛ فقد ظهرت حال انكسار هيبة الدولة الولاءات والانتماءات «الأولية» لما قبل الدولة، وكما احتمت الدولة القمعية وقوى الثورة المضادة بأقليات إثنية أو طائفية أو مذهبية ممتدة خارج الحدود أو حتى بنخب عسكرية ضمن منظومتها الأمنية للدفاع عن مصالحها المهددة مستخدمة آلتها القمعية والتدميرية، احتمت في المقابل قوى الثورة بحاضنتها الشعبية وانتماءاتها وامتداداتها، وهو ما خلق تغذية متبادلة لصراعات اتخذت طابعاً هوياتياً ومذهبياً، استفادت منه الأجنحة الأكثر تطرفاً وأدلجة على الجبهتين، على حساب قوى التغيير والاعتدال.

في مشهد كهذا من الطبيعي كما نخلص مع الكتاب، أن تعتمد الأطراف المتصارعة الخطاب الهوياتي المؤدلج الذي بدأ مضمراً ومستتراً، لكنه ما لبث أن كشف عن نفسه بوضوح تحت وطأة العنف العاري والتدخل الأجنبي والإقليمي المتنوع والمتعدد. وكشف الصراع الدامي في العراق وسورية ومن ثم اليمن ولبنان، عن وقائع تشكلات هوياتية مذهبية مؤدلجة تمتلك قوى ميليشياتية ضاربة، تتخطى ولاءاتها حدود أوطانها من جهة، وتشكل بنفس الوقت قوى رديفة للدولة، مندمجة فيها أو موازية لها.

ما يحدث حولنا اليوم يؤكد كل ذلك؛ فما يجمع المقاتلين القادمين من إيران تحت أعلام الحرس الثوري أو من «الهزّارة الشيعة» في أفغانستان من جهة، والمقاتلين الشيشان والتركمان والمتطوعين القادمين من بلدان أوروبية وغربية شتى تحت أعلام السلفية الجهادية من جهة أخرى، منطق «جهادي» واحد لا علاقة له بالحرية أو الانتقال السياسي أو الإصلاح الديمقراطي. بين شعارات «المقاومة والممانعة» والدفاع عن «المراقد» حتى «لا تسبى زينب مرتين»، يتأسس خطاب هوياتي متوحش ومتمذهب يقوم على الإقصاء والإلغاء، موظِّفاً النصوص الدينية كعدّة أيديولوجية قاتلة لا تصلح إلا للتكفير المتبادل.

## ـ ٧ ـ

يضعنا الكتاب على نحو صادم أمام عقل هوياتي «أداتي» مؤدلج ومتمذهب، نجح في اجتياح مساحات واسعة من المشتركات والجوامع الهشّة في الأساس، فقد تفككت «الهوية القومية» وتشظّت «الهوية الوطنية»، وتحولت الهوية الدينية التوحيدية الجامعة إلى سرديات مذهبية انقسامية، وتقف الدولة كمؤسسة جامعة على تخوم التفكك والتشظي وإعادة التشكل وفق منطق «المجال الهوياتي» الذي يرتسم على أرض الصراع الدامي، في ظل تجاذبات دولية كشفت أيضاً عن صراعات ومصالح آخذة في التشكل وفق منطق تعددية المجالات الهوياتية في عالم استعصى على الأحادية القطبية التامة. خلاصات صادمة لكنها سوسيولوجيا الواقع العربي الذي يعكس ديالكتيكاً انقسامياً مريعاً في وقائعه المُرة التي تعود بنا مرة أخرى إلى الحقيقة التي لا مفر منها وهي أننا يوم فقدنا هويتنا العربية دخلنا مربع الدم ولن نخرج منه إلا بإعادة بنائها من جديد □